

إشكالية ضبط المفاهيم اللسانية وأبعادها في الدّرس اللّساني المعاصر د. ذهبية حمو الحاج

قسم اللّغة العربية، جامعة تيزي وزو، الجزائر

hamoulhadj_d@yahoo.fr

مقبول: 08/12/2025

استلم: 15/07/2024

نشر: 27/12/2025

ABSTRACT: By addressing the topic of this research, we wanted to stand up to the efforts of Arab scientists, both modern and early in particular, in order to monitor their views on the issues of modern linguistics and their developments, and to engage them for a period of time that proves important in revealing the secrets of the human language in terms of its construction: voice, banking, synthesis, and semantics. The 1980s guarantor Hatem was able to raise and simplify many linguistic issues, and his book "Linguistics" became an important reference for students educated at the time. Given the difficulty and inaccessibility of the New Soviet concepts, the concepts of the New Western Science (linguistic), the author influenced their introduction to the Arab reader in a scientific teaching form to benefit from them. The aim of this research is to uncover initial efforts in the field of linguistics. And the introduction of the most modern Arab flags, and to read such a scientific effort, the analytical descriptive curriculum was an important basis for reaching the results that could be said to be very important given the author's attempt to bring the Syrian thought closer to the minds of Arab readers. language and Arabic language in particular, Thus, the book is familiar with most language issues and addresses them in a systematic scientific manner.

KEYWORDS: Language, Language Study, Linguistics, Linguistic Dimensions, Linguistic Concepts, Saussurian thought.

المخلص: أردنا من خلال معالجة موضوع هذا البحث الوقوف عند جهود العلماء العرب المحدثين والأوائل منهم بخاصة، من أجل رصد آراءهم فيما يتعلق بقضايا اللسانيات الحديثة وتطوراتها، والاشتغال بها لمدة من الزمن يثبت أهميتها في الكشف عن أسرار اللّغة البشرية من حيث بناؤها: الصّوتي، والصّرفي، والتركيبية، والدّلالي. لقد تمكّن حاتم الضّامن في ثمانينيات القرن الماضي من إثارة لكثير من المسائل اللّسانية وتبسيطها، وأصبح كتابه "علم

اللغة " مرجعا مهما للطلبة المتعلمين في ذلك الوقت. ونظرا لصعوبة المفاهيم السوسورية الجديدة واستعصاء الوصول إليها، المفاهيم التي جاء بها العلم الغربي الجديد الوافد (اللسانيات)، أثر المؤلف تقديمها للقارئ العربي بشكل تعليمي علمي قصد الاستفادة منها. فالهدف من هذا البحث كامن في كشف الغطاء عن جهود أولية في مجال اللسانيات، والتعريف بأحد أعلام العرب المحدثين، ولقراءة مثل هذا الجهد العلمي كان المنهج الوصفي التحليلي سندا مهما للوصول إلى النتائج التي يمكن القول أنها جذّ مهمة نظرا لمحاولة المؤلف تقريب الفكر السوسوري إلى أذهان القراء العرب، الذين كانوا بحاجة إلى معالم وأدوات أخرى جديدة لمعرفة اللغة البشرية عامّة واللغة العربية بخاصّة، وبذلك يكون الكتاب ملما بمعظم قضايا اللغة ومعالجتها بشكل علمي منهجي.

الكلمات المفتاحية: الأبعاد اللسانية، دراسة اللغة، الفكر السوسوري، اللسانيات، اللغة، مفاهيم لسانية .

مقدمة:

شهدت دراسة اللغة البشرية اهتمام باحثين من مختلف المشارب والمرجعيات والتوجّهات، ما أفضى إلى ظهور عدّة نظريات تعجّ بمفاهيم لسانية منها البسيطة والغامضة، كثيرا ما شكّلت اختلاف اللسانيين وصراعهم، نظرا لحاجتها إلى نقلها وترجمتها إلى اللغة العربية، التي تحتاجها قصد الالتحاق بالركب الحضاري في التطوّر المعرفي اللساني. ومن بين الذين كانت لهم جهود مميّزة في إيضاح المفاهيم اللسانية وتبسيطها للقارئ العربي نجد حاتم الضامن، الذي ألف كتابا قيّما جمع فيه العديد من المسائل اللسانية تتوزّع على عدّة محاور تلمّ بمفهوم اللسانيات وما يتعلّق معها من قضايا: صوتية، وصرفية، ونحوية، ودلالية إضافة إلى ما يرتبط باللغة من صراع، ووظائف، وكتابة، وفكر... وبذلك يمكن أن يكون هذا الكتاب مرجعا مهما للقارئ العربي قصد التّعرف على المجال اللساني وما يجاوره من قضايا جوهرية تشكّل أساس الدرس اللساني المعاصر.

وحتّى نبين مكانا أهمية هذا المؤلف اللساني ونلقي الضوء على بعض آراء صاحبه في موضوع اللسانيات الحديثة، سننطلق من عرض محتواه في البداية بشكل مختصر، الأمر الذي سيتمّ من خلال معالجة نقطتين مهمّتين في هذا البحث لعلّها تمكّننا من إعطاء الكتاب حقه من الأهمية التي اكتسبها في عرض المحتوى اللساني. ذلك أنّ العودة إلى محتوى كتاب "علم اللغة" لحاتم الضامن

تستوجب منا الوقوف عند محتواه كخطوة أولى، قصد الكشف عن أهم القضايا المطروحة والتي لها علاقة باللسانيات السوسورية بخاصة، ثم مرافقة هذه الأفكار ببعض الآراء الخاصة بباحثين لسانيين آخرين مؤيدة تارة ومناقضة تارة أخرى بغرض تحميلها شحنتها المعرفية بشكل علمي دقيق.

1. مختصر محتوى الكتاب وأبعاده الوصفية والتحليلية:

1.1 المقدمة: اشتملت على بيان سبب التأليف، وهو أنه قد عُهدَ إلى المؤلف "حاتم الضامن" تدريس هذه المادة (علم اللغة) للطلبة بكلية الآداب، ولم يكن ثمة كتاب جامع يرجعون إليه في ذلك، فكان هذا الكتاب الذي استوعب مفردات المادة وما هو ضروري من المعارف اللغوية التي ينبغي للمتخصص في علم اللغة أن يبدأ بها، ثم أوضح منهجه في الكتاب وهدفه منه؛ فقال: "ألقيت الضوء على أهم المؤلفات التي تناولت البحث في علم اللغة عند القدامى، وأكثر من ذكر دراسات المحدثين ليقف عليها الطلبة وينهلوا منها...، ولا أزعم أنني أتيت بجديد؛ إذ ليس لي في هذا الكتاب فضيلة... سوى أنني جمعت فيه ما تفرق... وفق المنهج المقرر؛ ليسدّ النقص، ويسهل على الطلبة استيعاب المادة" (الضامن، 1989، ص03). يبدو جلياً أن المؤلف حاول الأخذ بالدرس اللغوي القديم والدرس اللساني الحديث، إلا أن اهتمامه كان مع اللسانيين المحدثين أكثر، نظراً لاستهدافه الاستيعاب الأكبر عند الطلبة، وفي ذلك يقرّ عدم اتيانه بالجديد في خصوص المادة اللسانية، وإنما جهده كان منصبا على جمع المادة وفق ما تتطلبه المناهج التعليمية المقررة على الطلبة. ثم شرع في مادة الكتاب، فتناول:

1. مقدمة في الدراسات اللغوية (قديمًا وحديثًا)

أشار حاتم الضامن إلى أشهر اللغويين القدامى ومؤلفاتهم في ذلك، ومنهم: الخليل بن أحمد الفراهيدي، وقطرب، والسيوطي... وعُدَّ عشرين آخرين من أعلام اللغة العربية المشهورين. ثم تناول المحدثين، ومنهم: إبراهيم السامرائي، أحمد مختار عمر، وإميل يعقوب.... وغيرهم الكثير، حتى عدَّ أكثر من مائة وخمسين باحثًا، رتبهم على حسب حروف الهجاء. وانتقل

إلى ذكرَ خمسين كتابًا من الكتب المترجمة في هذا المجال، بأسماء مؤلفيها ومترجميها، ورُتب الكتب على حسب حروف المعجم، ومنها على سبيل المثال: أسس علم اللغة؛ لـ "ماريوبا"، ترجمة أحمد مختار عمر، والتعريف بعلم اللغة؛ لـ "كريستال"، ترجمة حلمي خليل، وعلم اللغة العام؛ لـ "دي سوسور"، ترجمة يونس يوسف عزيز، والبنوية، لـ "جون بياجي"، ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري.... وفي الحقيقة تعدّ هذه المؤلفات كتباً قيّمة في المجال اللساني، إذ بها أنير درب الباحثين العرب في دراسة اللغة العربية وفق المنهج البنيوي وما بعد البنيوي أيضاً.

2. علم اللغة العام:

تناول المؤلف تحت هذا العنوان تعريف علم اللغة؛ ويعدّ باختصار في رأيه (دراسة اللغة على نحوٍ علمي)، ويتضمّن المباحث الأربعة التالية: الأصوات، والصرف، والنحو، والدلالة، ثم بيّن أساسياته وأهدافه. يشير المؤلف في هذا الصدد إلى أنّ علم اللغة العام يختصّ بتقديم المعلومات التي تفيد فهم اللغة البشرية، مثلما يقدّم الوسائل التي تساعد على دراستها، ما يتبلور على شكل مناهج تميّزها العلمية والموضوعية. وينتبه المؤلف إلى توظيف مصطلح علم اللغة، في مقابل "علم اللغة العام" Linguistique générale الذي وضعه سوسور، وباعتبار هدف علم اللغة العام الذي يتمثّل في وضع نظرية في اللغة، فإنّ هناك من الباحثين من يطلق عليه تسمية "علم اللغة النظري" Linguistique théorique، وإلى جانب هذا ارتبط بعلم اللغة العام صفة الوصف إلى حدّ أن دُعي بعلم اللغة الوصفي، الذي يهتمّ بدراسة وتحليل الخصائص الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية للغة، ورغم ذلك هناك من العلماء من يذهب إلى التمييز بينهما.

يشير المؤلف إلى عدم اشتغال علم اللغة العام بمفرده، وإنّما هو بحاجة إليه من منطلق خاصيّة التأثير والتأثر، فيمكن الحديث عن تعاقب المراحل في دراسة اللغة البشرية، إذ تكمن مهمّة علم اللغة الوصفي في وصف المادة اللغوية المدروسة وصفاً علمياً دقيقاً مستنداً في ذلك إلى نظرية في اللغة، وبذلك

يقدم لعلم اللغة العام النتائج التي بإمكانه الاشتغال عليها.

ومن بين أهداف علم اللغة العام، إيضاح العلاقات الموجودة بين اللغات والمجتمع والجوانب الحضارية المختلفة، والكشف عن عوامل انتشار اللغات وانقراضها، والتجديد فيها، إضافة إلى الكشف عما يربط علم اللغة العام بالعلوم الإنسانية المجاورة كعلم النفس، وعلم الاجتماع.... وفي الأمر ذاته تقول خولة طالب الابراهيمى "علم اللسان هو الدراسة العلمية الموضوعية للسان البشري، أي دراسة تلك الظاهرة العامة المشتركة بين بني البشر والجديرة بالاهتمام والدراسة بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى، التي لا تعدّ من صلب اهتمام اللسانيين تختصّ بجوانب ثانوية للسان بحكمه ظاهرة معقدة ومركبة، يمكن أن تتناول من زوايا عديدة اجتماعية نفسية، فزيولوجية وفيزيائية تتكفل بها علوم أخرى مثل علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم فزيولوجيا الأعضاء وعلم الصوت الفزيائي" (خولة طالب الابراهيمى، 2006، ص09).

3. المصطلحات الشائعة في الدراسات اللغوية:

أمّا عودة المؤلف إلى عنصر المصطلحات الشائعة في الدراسات اللغوية، إثارة لبعض القضايا المرتبطة بالمصطلحات المتداولة، وقد أشار إلى اللغة، واللهجة، وفقه اللغة، وعلم اللغة الذي كان دخيلا على الدراسات اللغوية في الجامعات العربية حديثا، ومهمته تكمن في معالجة مسائل اللغة معزولة عن أية لغة من اللغات، وتبلور الفكرة التي حدّدها بها سوسور، وهي "دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها"، ولا تخصّ هذه الدراسة أية لغة من اللغات، وإنما تخصّها بالنظر إليها على اختلافها بغرض الكشف عن الحقائق والخصائص التي تشترك فيها، وجاءت هذه النتيجة بعد عرض المؤلف للمصطلحات السابقة الذكر، وتحدّث اللغة عند القدامى والمحدثين بتعبيرات مختلفة مفادها جميعا ما يملّي الوظيفة التواصلية بواسطة تركيب لفظي معيّن، حتّى اعتبرت اللهجة من هذا المنطلق لغة، إذ كثيرا ما نسمع بلغة تميم، ولغة قريش... وهي في الحقيقة لهجات تابعة لرفع جغرافية محدّدة، الأمر ذاته الذي جعل البعض يطلق عليها مصطلح "الّلحن"، بينما نضطلع للهجة

بتعريف جديد في العصر الحديث، وهو "اللّهجة... مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. والصفات التي تتميز بها اللّهجة تكاد تنحصر في الأصوات وطبيعتها وكيفية صدورها" (حاتم الضامن، 1989، ص33)، الأمر الذي يجعل الحدود الفاصلة بينهما غير واضحة، يقول سوسور "أما الفيلولوجيا (فقه اللّغة) فقد وضحنا معالمه، فهو يتميز عن علم اللّغة، مع وجود نقاط الاتصال بين العلمين، والخدمات المتبادلة التي يقدمها كلّ منهما للآخر" (سوسور، 1985، ص25).

وفي الاجمال تناول المؤلف تحت هذا العنوان: المفردات والمصطلحات بالشرح والتعريف، وهي: اللّغة، واللّهجة، وفقه اللّغة، وعلم اللّغة. وفي حديثه عن علم اللّغة يذكر أنّه يستعمل هذا المصطلح عند بعض اللّغويين بمعنى: دراسة الألفاظ مصنّفة في موضوعات مع بحث دلالتها. ثم بيّن أنّ ثمة تداخلاً وخطاً بين مصطلحي علم اللّغة وفقه اللّغة عند الباحثين قديماً وحديثاً، رغم أنّ الدّراسة اللسانية عند سوسير تقرّر أنّ النّظر إلى اللّغة في ذاتها ومن أجل ذاتها هو الموضوع الوحيد لعلم اللّغة، إذ "هي نظام، وهذا النّظام يوجد مستقلاً عن الأفراد، الذين يحققون في الاستعمال اللّغوي إمكانات النّظام" (هبلش، 2003، ص69).

4. علم اللّغة والعلوم الإنسانية الأخرى:

تحت هذا العنوان تناول المؤلف العلاقة الرّابطة بين علم اللّغة وغيره من العلوم الإنسانية؛ حيث تشترك في اهتمامها باللّغة بوصفها أهم مظاهر السلوك الإنساني، ووسيلة الاتصال المكوّنة للجماعة الإنسانية. إذا كانت اللّغة هي القاسم المشترك بين العلوم الإنسانية، فمن المنطقي جدّاً أن تكون محل اهتمام هذه العلوم المختلفة، التي تكشف عن القضايا بأدوات متخصصة، وبذلك يقدّم كلّ اسهامه فيما يخصّه بغرض اكتمال الدّراسة، لأنّ علم اللّغة لا يستطيع شيئا إزاء بعض الظواهر اللّغوية، وبذلك ينبغي الاستناد إلى العلوم الإنسانية المجاورة مثل الفيزيولوجيا التي تهتمّ بعلم وظائف الأعضاء، وعلم الفيزياء الذي يهتمّ بالأمواج الصّوتية، إلى جانب علم التشريح الذي يهتمّ بدراسة أعضاء النّطق عند الإنسان.

وتوجّه إلى الحديث عن علم اللّغة الاجتماعي، وعلم اللّغة النفسي، وعلم اللّغة والجغرافية اللّغوية، وأفرد كلاً منها في موضوع خاصّ. علماً أنّ علم اللّغة الاجتماعي (اللّسانيات الاجتماعية) هو من العلوم الأكثر تقدّماً وشيوعاً في الدّراسات اللّغوية الحديثة من حيث اهتمامه بالبحث في علاقة اللّغة بالمجتمع، ودراسة اللّغة في سياقها الاجتماعي، وأساليب تغيّر البنية اللّغوية في علاقتها بالوظائف الاجتماعية المختلفة، مثلما يهتمّ علم اللّغة الاجتماعي بـ"اللّهجات، ودراسة اللّغة وأثر الجنس فيها، ودراسة الكلام المحظور اجتماعياً كالكلمات المبتذلة التي ينفر منها المجتمع" (حاتم الضامن، 1989، ص39)، فنظراً لشمولية القضايا التي يعالجها هذا العلم، يقوم حسن كزار بتحديدته على أساس "أنّ هذا المصطلح الذي وسم به الاتجاه الموجه إلى دراسة العلاقة بين اللّغة والمجتمع، لم يكن منفرداً، بل ظهرت قبله ومعه مجموعة من المصطلحات، والسبب في ذلك أنّ دراسة اللّغة وعلاقتها بالثقافة والمجتمع حقل واسع عريض إلى أبعد الحدود، وهذا الأمر ينفي أحقيّة علم واحد للقيام بهذه المسؤولية، فظهرت علوم أخرى أو فروع أخرى من العلم تناولت هذا الموضوع بالنظر والدّرس تحت أسماء مختلفة، حملت معها شيئاً من التشابك والتداخل في المصطلحات والمفهوم، لأنّها تعرّضت لدراسة الموضوع نفسه من زاوية أخرى على وفق اهتمامات العلم المعين ورجاله" (كمال بشر، 2018، ص16). بينما يهتمّ علم اللّغة النفسي بما يربط بين اللّغة والعقل البشري من قضايا لغوية بخاصّة مثل الاكتساب اللّغوي، واللّغة والفكر، واللّغة والشخصية، ودراسة العيوب الكلامية... بينما يكمن اهتمام علم اللّغة والجغرافيا اللّغوية بتسجيل الواقع اللّغوي للّغات أو اللّهجات على خرائط ممّا يشكّل ما يسمى بالأطالس اللّغوية، يكون فيها اختصاص كلّ خريطة بكلمة أو ظاهرة صوتية معيّنة... وبذلك يكون اعداد الأطالس اللّغوية أسبق في الوجود من معظم الإنجازات الوصفية الحديثة، وهو يعتمد إلى حدّ كبير على مفردات اللّغة التي تعدّ في نظر الوصفيين في الدّرجة الأولى، ولكنّه مع ذلك اتّبع منهاجاً يمكن أن يوصف على الأقل أنّه وصفي، وبأنّه خير

مثل للعمل اللغوي تحت ظروف بيئة معينة" (ماريو باي، 1998، ص131).
5. علم الأصوات:

تناول أول مباحث أو فروع علم اللغة العام، التي أشار إليها في الفصل الثاني، فعرف به تعريفاً شاملاً ولكن بصورة موجزة. ففي الصوت وقوف عند دراسته باعتباره فرعاً من فروع علم اللغة العام، وباعتبار تمييزه عن الفروع الأخرى المذكورة سلفاً، والوقوف على مميزاته الفيزيائية والوظيفية ما يستوجب العودة إلى تركيبه الجهاز الصوتي وكيفية اشتغاله في عملية إنتاج الصوت، وانتقاله إلى ذهن السامع وتشكيل ما يدعي بالدليل اللغوي، فكل نظام صوتي في أي لغة كان يتكوّن من وحدات صوتية تحدّد هويتها بمجموعة من المميزات، بل تلك التي تساهم وحدها أو مع غيرها في التمييز بين معاني الكلم. وهذه الصفات المميزة بين معاني الكلم هي التي يجب الاعتماد عليها في التحليل، لأنها هي التي تساهم في البيان عن المعاني أمّا غيرها من الصفات فليس لها هذا الدور" (التواتي، 2012، ص16).

6. بناء الكلمة (أي: علم الصرف)

وهو المبحث الثاني أو الفرع التالي من فروع علم اللغة العام، فعرف بالكلمة، وبنائها، ثمّ تحدّث عن الوحدات الصرفيّة، ويمكن القول أنّ المؤلف قد حدّد الصرف على أساس بناء الكلمة باعتبارها وحدة دلالية مهمّة، ومن المعلوم عدم تكوّن البنية اللغوية من الوحدات الصوتية وهي مفردة، وإنّما تتكوّن من وحدات صوتية مركّبة بغرض تشكّل الكلمة أو الوحدة الدلالية الدنيا أو ما يدعى عند الوظيفيين بالمونيم Monèmes نتاج تركيب الأصوات أو الوحدات غير الدلالية الدنيا Phonèmes. مثلما انتبه المؤلف إلى تحديات الصوت عند الباحثين القدامى والمحدثين، التي كانت فيها نقاط التشابه والاختلاف، من حيث التّركيز على الوحدات الصرفيّة، ثمّ عن أنواعها، ثمّ عن الأنماط الصرفيّة، ثم عن التغيرات الصرفيّة.

7. بناء الجملة (أي: علم النحو)

الحديث عن التركيب وأهميته ودوره أدى بالمؤلف إلى العودة إلى المنهج التوليدي التحويلي، الذي ذاع وانتشر منذ صدور كتاب لنعوم تشومسكي بعنوان "البنى التركيبية" سنة 1957، الذي كانت فيه العناية بالجملة وبنائها بعد أن نالت الكلمة والصوت حقهما من الدراسة لما يقارب المائة عام، وبعد أن لوحظت النقائص في الاهتمام ببنية الكلمة أيضاً، كما أن الباحثين قد اهتموا إليها باستثمار الأجهزة الالكترونية وبروز دورها المميز في البحث اللغوي لتحقيق مزيد من الموضوعية والدقة العلمية. والبنى التركيبية في حقيقة الأمر مرتبطة بالفرد لأنه المعني بالإمكانات اللغوية وليس بطاقات اللغة في حد ذاتها، فينبغي تحديد "الإمكانات التعبيرية" التي يملكها الفرد أو مستخدم اللغة، لأنه الوحيد الذي بإمكانه إنتاج جمل جديدة متعددة وفهم جمل جديدة أخرى. إلى جانب ظاهرة تحويل اللغة من خلال البنية العميقة والسطحية وما يربطهما من علاقات، فإنه بواسطة هذه الظاهرة بالذات يمكن إبراز الاختلافات الكامنة في علاقات الوحدات الصرفية ودورها في بناء الجملة، وفي الصدد ذاته نجد تشومسكي يلخص ذلك في قوله إن العملية اللغوية تتألف من ثلاثة مكونات وهي المكون التوليدي المركبي، وهو أهم مكون وتشمل الوحدات التركيبية لهذا المكون كل الجمل النحوية ذات النظام الدقيق. والمكون التحويلي ويعني بذلك أنه قادر على تحويل الجملة الأساسية إلى جملة أخرى (استفهامية، شرطية، وتعجبية...) والمكون الصوتي-الصرفي وهدفه يكمن في إنتاج جمل صحيحة في صياغات لغوية أخيرة سواء أكانت هذه الجمل منطوقة أو مكتوبة" (مازن الوعر، 1988، ص93).

8. علم الدلالة:

وهو من مباحث أو فروع علم اللغة العام. تناول فيه: مفهومه، ومجال بحثه، وأشار إلى نشأة الكلام حولّه، وأنها ضاربة في القدم، كما أنه أشار إلى إغفال الدراسات المعاصرة لجهود العرب القدامى! ذاكراً أهم جهودهم، وأبرز محاولاتهم، في سلسلة تطوّر الاهتمام الدلالي؛ فبدأ الحديث عن محاولة ابن جني، ثم محاولة

ابن فارس، ثمَّ عبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسيوطي...، كما أنَّ المؤلِّف لم يُغفل جهودَ الأصوليين والفلاسفة المسلمين أيضًا؛ كالغزالي والشريف الجرجاني، والفارابي وابن سينا، وابن رشد... ثمَّ شرع في الحديث عن علم الدلالة في العصر الحديث، ومتى ظهر هذا المصطلح. علما أنَّ تحديد هذا العلم مرتبط بعلوم أخرى، يقول هادي نهر "ولمَّا كانت الدلالة مقصودة بمعنى اللَّفْظ دون غيره، تحدَّد (علم الدلالة) الاصطلاحي بكونه علما خاصًا بدراسة المعنى في المقام الأول، وما يحيط بهذه الدراسة أو ما يتداخل معها من قضايا وفروع كثيرة صارت اليوم من صلب علم الدلالة كدراسة الرُّموز اللُّغوية (مفردات، وعبارات، وتراكيب)، وغير لغوية، كالعلامات، والإشارات الدَّالة" (هادي نهر، 2008، ص14). انتقل المؤلِّف إلى ترتيب قضايا علم الدلالة في المحاور أهمُّها: المجالات الدلالية؛ وتناول فيها النظريَّات والمحاولات الغربيَّة في المجال الدلالي. انطلاقًا من موضوع المجالات الدلالية وإشكالية تصنيف المفردات ضمن مواضيع تجمعها، يمكن الانتقال إلى الفكرة ذاتها ولكن في إطار المعاجم، التي أولاهها المؤلِّف عناية مميَّزة من حيث تقسيمها وذكر أهمُّها عند القارئ العربي مستأنسا ببعض النماذج وقسمها إلى:

- 1-كُتُب الموضوعات؛ وأراد بها الرسائل اللغوية.
- 2-كُتُب الأضداد.
- 3-كُتُب التراثُف.
- 4-كُتُب المشترك اللفظي.

(5)المعاجم العربية (معاجم الألفاظ) ، وذكر مدارسها:

- أ-مدرسة العين للفراهيدي،
- ب-مدرسة الجمهرة لابن دُرَيْد؛
- ت-مدرسة المقاييس لابن فارس؛
- ث-مدرسة الصحاح للجوهري،
- ج-مدرسة الأساس للزمخشري.

9. نشأة اللُّغة الإنسانية:

تناول حاتم الضامن في هذا الفصل ذكْر الخلاف بين العلماء والمفكرين في موضوع نشأة اللُّغة، وأبرز المذاهب والنظريات في ذلك، حتى عَدَّ منها سبعة مذاهب. تناول المؤلِّف هذه الإشكالية من حيث الأصل الذي انبثقت منه، ومن حيث تعدد آراءهم وأفكارهم في هذا الشأن،

فانقسموا إلى فئات، كل فئة تؤيد مذهبها وتتصوره الأصح من بين كل المذاهب التي ذكرها المؤلف وهي: الوحي والالهام أو مذهب التوقيف، ومذهب المواضعة والاصطلاح، ومذهب المحاكاة، ونظرية التنفيس عن النفس، ونظرية الاستعداد الفطري، ونظرية الملاحظة، ثم نظرية التطور اللغوي. وإن كانت المذاهب الأولى متداولة كثيرا في كتب اللسانيين والباحثين في مسألة اللغة الإنسانية، فإن نظرية التنفيس عن النفس تتلخص في نظر المؤلف في أسبقية مرحلة الأصوات الساذجة التلقائية الانبعائية الصادرة عن الإنسان للتعبير عن أحاسيسه المختلفة والمتطورة عبر الزمن إل ألفاظ، ومن هذا المنطلق وفيما يذهب إليه جوزيف فندريس J. Vendryes فإن هذه النظرية ترجع نشأة اللغة الإنسانية إلى أمر ذاتي، ما يجعلها تختلف في توجهها عن نظرية المحاكاة إذ تفسر منشأ بعض المفردات، ورغم ذلك تبقى مجرد نظرية بحاجة إلى الدقة العلمية.

10. نشأة اللغة عند الطفل:

بيّن المؤلف في هذا الموضوع أن التكلم لا شك أنه أمر مكتسب، لا علاقة له بالوراثة ولا بالفطرة، ولكن لا بد من أن يجيب علم اللغة على أسئلة ما زالت تحتاج إلى الإجابة عليها، مثل: كيف يتعلم الطفل اللغة؟ وهل يتعلمها دفعة واحدة أم على دفعات؟ وهل هناك تفاوت لدى الأطفال في تعلمها؟ وهل بإمكان الطفل إدراك دلالة الألفاظ التي يتعلمها؟ وما أثر ثقافة الأهل على سرعة تعلمه؟ وأسئلة كثيرة أخرى قد حاول المؤلف الإجابة عنها من خلال أساسيات ونظريات تتعلق بهذا الأمر وما يرتبط بمراحل اكتساب اللغة عند الطفل مثل مرحلة إصدار الأصوات، والمناغاة، والبأبة، ثم مرحلة الكلام الذي يكون متدرجا من الجمل البسيطة إلى الجمل المعقدة، أي الوصول إلى مرحلة التركيب بعد تعلم الألفاظ والمفردات، فلا بد أن تكون هناك علاقة بين اللغة والفكر عند البحث في نشأة اللغة عند الطفل، يقول ستيفن بينكر في هذا الصدد: "ويعرفون أن اللغة هي التي تحدّد الفكر، فاللغات المختلفة تجعل متحدثيها يرون الواقع بطرق متفاوتة، وهم يعرفون أن الأطفال يتعلمون الكلام من أهلهم وممن يقتدون بهم" (ستيفن بينكر، 2021، ص23)، فمن الواضح جدا أن

اكتساب اللّغة يستدعي بيئة لغوية وجهازا سمعيا سليما.

11. اللّغة المشتركة واللهجات:

أثار المؤلف قضية اللّغة واللهجات من باب الاشتراك في الوضع والاستعمال، فالى جانب أية لغة من اللّغات توجد مجموعة من اللهجات، فهي تعيش متصاحبة جنبا إلى جنب في اختلاف حيننا وفي تعايش حيننا آخر، وفي حالة تأثر وتأثير دائم يكون فيه نتيجة عامل التفريق وعامل التوحيد مجسدة لغات مختلفة لدى الشعب الواحد، وهي في الحقيقة لغات مختلفة: لغات خاصة، ولغات اجتماعية، ولغات محلية، ولهجات إقليمية، ولغات مشتركة، " اللّغات الخاصة تنشأ من الانفصال الاجتماعي، لذلك كانت -من حيث المبدأ- لغات طبيعية كاللهجات تماما، ولكنها تقوم دائما على مادة لغة مشتركة، وتظل عادة تستمد منها غذاءها" (فندريس، 2014، ص235)، في حين تقوم اللّغات المشتركة دائما على وجود لغة تتخذ حيزا معتبرا من المتكلمين بها نظرا لاشتراك أفرادها في الظروف التاريخية بخاصة، الأمر الذي يفسر بغلبة لغة من اللّغات في مجتمع معين، وقد يدعوها البعض باللّغة الوسطى، وذلك ما يمكن أن يفسر أيضا العلاقة الموجودة بين اللّغة المشتركة واللهجات، وقد تكون كلاهما منبثقتين من اللّغة الأصلية مستمدتين منها المفردات، والقواعد، والتراكيب.

12. الصّراع اللّغوي... أسبابه ونتائجه:

تناول المؤلف في هذا الفصل الحديث عن الاحتكاك بين اللّغات، وتأثر كلّ منها بالآخر، وتأثير بعضها على بعض. ويذكر في هذا السياق الأسباب المؤدية إلى ذلك، كما يشير إلى عوامل القوّة والضعف بين اللّغات. ويذكر -أيضا- بعض أمثلة الصّراع الذي يحدث بين لغتين قويتين، والأعجب من ذلك الصّراع الذي يحدث بين لغة مشتركة؛ حيث تكون المنافسة في هذه الحالة تدور حول انضمام دائم لعدد كبير من عناصر إحدى اللّغتين إلى الأخرى، حتى ينتهي الحال بأن تفقد إحداها معالمها اللغوية، وتحدث التفرقة التي ستكون لها عواقب على التّواصل الاجتماعي، لذلك نجد فندريس يقول: "أشرنا... إلى أي حدّ يعتبر توحيد اللّغة ضرورة اجتماعية، ولولا مقاومة المجتمع للتّفكك اللّغوي لأصبح العالم أمام حشو

من صَوْر التَّكَلُّم التي لا تزيدها الأيام إلا تفرّقا، ولكن الذين يتحدّثون إحدى اللّغات يميلون دائما إلى المحافظة عليها كما هي، وكذلك التّبادل الكلامي الذي يحدث باستمرار بين أعضاء مجموعة اجتماعية واحدة يؤدّي إلى توحيد اللّغة" (فندريس، 2014، 326). ويذهب المؤلّف إلى تصنيف مراحل الصّراع اللّغوي وذكر القواعد التي تنصّ على عدم تغلّب لغة على أخرى إلا بتوفّر أسس معينة.

13. مناهج البحث اللّغوي:

تحدّث فيه عن توظيف العلماء لمناهج معيّنة في دراسة اللّغة، أولها: المنهج المقارن، ثمّ المنهج التاريخي، ثمّ المنهج الوصفي. علم اللّغة المقارن هو العلم الذي يتناول مقارنة مجموعة لغات تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة، ويعدّ أقدم منهج في علم اللّغة الحديث، وشهد شيوعا في القرن التّاسع عشر ميلادي. يعتمد على وجود تصنيف واضح للغات إلى أسر لغوية في محاولة الكشف عن القرابة بينهما، والتي تجسّدت بشكل علمي دقيق بعد اكتشاف اللّغة السنسكريتية في الهند حسب المؤلّف. وبفضل المقارنة تمّ تصنيف اللّغات وإيجاد علاقة بعضها ببعض من خلال السّمات المشتركة بينها. مثلما كان اهتمام علم اللّغة المقارن بدراسة الطّواهر الصّوتية، والصّرفية، والنّحوية، والمعجمية في تلك اللّغات التي تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة.

أمّا علم اللّغة التّاريخي فتظهر مهمّته من خلال تسميته، فهو العلم الذي يتتبّع تطوّر لغة من اللّغات في مراحل تنقلها المختلفة عبر العصور اعتمادا على ما تقدّمه النّصوص المدوّنة من معلومات، وهو العلم الذي أطلق عليه سوسور تسمية الدّياكرونية (أي الزّمانية أو التّعاقبية)، في مقابل علم اللّغة الوصفي الذي يتناول بالدراسة لغة واحدة دراسة علمية في زمن محدّد ومكان محدّد، من خلال تحديد المستوى اللّغوي الواحد من ناحية: الصّوت، والصّرف، والتّركيب، والمعجم، وبذلك يمكن القول في التّوجّه التّاريخي للدراسة اللّغوية أنّ "اللسان مادام حيّا لا ينفكّ يتحوّل ويتكيّف بحسب حاجيات مجموعة هي بنفسها تتطوّر، ويعكس رؤية للأشياء تتجدّد باستمرار، فلألسن تاريخ شأنها شأن الجماعات التي تتكلّمها، فهي أشياء حادثة لا أشياء ثابتة" (روبير

مارتن، 2007، ص141). لقد تمكّن سوسور من الخروج عن ذلك التّصوّر الغامض حول إمكانية دراسة لغة واحدة بواسطة المنهج المقارن، وبذلك يكون سباقاً إلى تطبيق المنهج الوصفي في دراسة اللّغة البشرية، وتحقيق فائدة في مجال تعليم اللّغات الأجنبية، وتعليم النّاس الطّرائق الصّحيحة في ممارسة لغاتهم، ولذلك يعدّه بعضهم "أكثر المناهج اللّسانية شهرة وتعدّد مدارس، وعدد دارسين، واتّساع زمان، وتخصيص درس، وتحديد أصول... وجعل اللّسانيون الوصفيون جهودهم منصّبة على توصيف اللّغة التي يتواصل بها القوم لا أن ينكفئوا إلى الماضي ينقّبون دهاليز التّاريخ عن اللّغة ونشأتها..."(السراقيبي، 2019، ص37).

14. الكلام واللّغة واللّسان:

وضّح المؤلّف في هذا الفصل الفروق بين هذه الألفاظ؛ وذلك في ضوء علم اللّغة، فبعد أن عرض المؤلّف الاختلافات الواردة بين هذه المصطلحات من خلال تحديدها عند بعض العلماء القدامى والمحدثين، وعند سوسور بخاصّة مادام هو من أثارها بطريقة مميزة وتبعه في ذلك عدد من الباحثين اللّسانيين ومن بينهم محمد حمد يونس علي الذي يقول "ويقصد بالكلام ما ينشأ عن الاستخدام الفعلي للّغة، أي ناتج النّشاط الذي يقوم به مستخدم اللّغة عندما ينطق بأصوات لغوية مفيدة. وبينما تتسم اللّغة بالطّابع الاجتماعي بوصفها ظاهرة اجتماعية كامنة في أذهان أفراد المجتمع"(محمد يونس علي، 2004، ص53). ويتوصّل المؤلّف إلى أن اللّسان جاء بعد اللّغة والكلام من حيث النّشأة، بمبرّر عدم إمكانية ثبات اللّسان إلا بعد مرور أجيال وأجيال عبر حقبة زمنية مختلفة، فتحدث علاقة تأثير وتأثر بين اللّسان من جهة وبين الكلام واللّغة من جهة أخرى، فيتأثر اللّسان باعتباره نتاج ما يصدر عن الأفراد من أقوال وملفوظات Enoncés، وباعتباره متشكّلاً من المخزون اللّغوي للأفراد والجماعات، في حين يؤثّر فيهما (اللّغة والكلام) لأنّ المتكلّم لا تنقطع محاولاته عن اتقان أساليب التعبير وصقل ملكته اللّغوية، ولذلك نجد سوسور يحاول توضيح الحدود الفاصلة في القضية قائلاً "اللّغة تختلف عن الكلام في أنّها شيء يمكن دراسته بصورة مستقلة، فاللّغات البائدة (الميتة) مع أنّها لم

تعد تستخدم في الكلام، نستطيع بسهولة أن نتعلم أنظمتها، فنتخلص من بقية العناصر اللسان الأخرى، بل إن علم اللغة لا وجود له إلا إذا أقصيت العناصر الأخرى" (سوسور، 1985، ص33).

15. وظيفة اللغة:

يتوصل المؤلف إلى تصور مهم يؤكد فيه على العلاقة الوطيدة التي تربط الفكر باللغة، فاللغة تسمح للفكر بالحصول على تعاريف جاهزة وعلى تصنيف للأشياء وتمييزها لبعضها البعض لتفادي التداخل، مثلما تساعد الإنسان على اكتساب ما يحتاجه من صيغ وأساليب متداولة ليتمكن من توظيفها أثناء الممارسة الفعلية للغة. وبعد تحديده لمهمة اللغة من حيث كونها وسيلة للتعبير وللتبليغ يخلص إلى أن جميع اللغات خاضعة لتصور واحد وهو تمثلها في مجموعة من العلامات أو الرموز المشتركة بين أفراد مجتمع واحد، وانطلاقاً منها يظهر كل من دور الكتابة، والقراءة، والتعبير ونتائج توظيفها في المجتمع قصد تحقيق التواصل، علماً أن " الكتابة ليست إلا وسيلة اختيارية، فمحرك التواصل اللغوي الحقيقي هو اللغة المنطوقة التي نكتسبها في طفولتنا" (ستيفن بينكر، 2021، ص20)، عملاً بأسبقية المنطوق على المنطوق وأفضلية التواصل باللغة المنطوقة.

خاتمة:

لقد حاول المؤلف في كتاب (علم اللغة العام) تمثيل أفكار دي سوسور على نحو مختصر في كثير من الأحيان، وكانت المباحث كثيرة وقاربت العشرين مبحثاً. وعودة المؤلف إلى أفكار سوسير كانت غايتها الاقتراب أكثر من أفكاره كما هي موجودة في كتابه الشهير "دروس في اللسانيات العامة"، فلم يكن التركيز على الكتابات أو المخطوطات، التي ربما لم تظهر بعد أو لم تكن هي غاية المؤلف حاتم الضامن، فسوسير لم يكتب هو محاضراته بنفسه مثلما هو معلوم، فربما لم يكن سوسير قد توصل إلى فكرة كاملة واضحة حول ما يجب أن يكون في الدراسات اللسانية بشكل دقيق، والمدقق في المحاضرات نفسها، يشعر أن سوسير كان يطور ويعدل من أفكاره أثناء التقدم في هذه المحاضرات، ولذا فإن الكثير من الذين يتعرضون لأفكاره بالشرح والتحليل

يضطرون إلى التقديم والتأخير فيها، لكي تبدو أفكاره أكثر انسجاماً وتماسكاً، ولا ننسى أنّ الصيغة النهائية لمحاضراته هي من تأليف شارل بالي، وألبرت سي شهاي، وليست من تأليفه هو نفسه.

حاول المؤلف كذلك عرض أفكار سوسير التي كانت محلّ التعديل والتطوير، وأحياناً محلّ إساءة التفسير أيضاً، أو بتعبير أحدهم تمت إعادة بناء فكر سوسير ليخدم أغراضاً معينة، لذا فمن الضروري فهم آراءه الأساسية على وجهها الصحيح، ومعرفتها معرفة دقيقة، وجدير بالذكر أنّ سوسير ألقى محاضراته في الفترة التي كانت أوروبا على حافة انهيار تاريخي كما يقول تيري إيجلتون، ولم يعيش سوسير طويلاً ليتمكن من رؤية آثار الحرب العالمية الأولى، ولا الثورات التي شهدتها أوروبا بعدها، وفي ظل ذلك الوضع السياسي والاجتماعي المزري يتم إعادة النظر في آراء سوسير وتوسيع دائرة تطبيقها، لتنتقل من حقل "لسانيات اللغة" إلى حقول أخرى كثيرة، ويكون منطلقها مع الشكلائية الروسية التي أدت دوراً مهماً في معالم تطوّر البحث اللساني البنيوي وما بعد البنيوي، إذ حلّ القضايا المعالجة في هذا الكتاب اكتسبت أبعاداً عظيمة في الدراسات اللسانية المعاصرة، فقد حظيت بمعالجة كثير من الباحثين من تخصصات مختلفة وفتحت الأبواب على ظهور عدّة نظريات تبرز تطوّر الدرس اللساني، الذي أصبح قرين تطوّر الإنسان في جميع التخصصات انطلاقاً من علاقة التأثير والتأثر بينها واستشرف دراسة لغة الإنسان بوسائل حديثة. ويمكن القول كذلك إنّ حاتم الضامن من المؤلفين العرب الأوائل الذين حاولوا جمع المسائل اللسانية السوسورية الكبرى وتبسيطها للمتعلّم العربي قصد تمكينه منها ولو بحزء قليل، فهو الذي يقول في مقدّمة الكتاب «لقد حاولت في هذا الكتاب أن أضع أمام طلبتنا الأعزاء ما هو ضروري من المعارف اللغوية التي ينبغي عليهم أن يبدأوا بها إذا ما أرادوا التخصّص بعلم اللغة».

المراجع

- حاتم صالح الضامن 1989، علم اللغة العام، مطبعة التعليم العالي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، كلية الآداب، جامعة بغداد.

- التواتي بن تواتي 2012، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، ط2، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر.
- جرهارد هلبش 2003، علم اللغة الحديث، ترجمة سعيد حسن بحيري، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.
- جوزيف فندريس 2014، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- حسن كزار 2018، اللسانيات الاجتماعية في الدراسات العربية الحديثة، التلقي والتمثيلات، ط1، دار الزافدين، بيروت، لبنان.
- خولة طالب الابراهيم 2006، مبادئ في اللسانيات، ط2، دار القصبة للنشر، الجزائر.
- روبير مارتن 2007، مدخل لفهم اللسانيات، ترجمة عبد القادر المهيري، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان.
- ستيفن بينكر 2021، الغريزة اللغوية، كيف يخلق العقل اللغة، ترجمة الطيب الحصني، ط1، مكتبة 1231، العربية السعودية.
- فردينان دي سوسور 1985، علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، ط1، دار آفاق عربية، بغداد.
- كمال بشر 1995، علم اللغة الاجتماعي، مدخل، ط1، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- ماريو باي 1998، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، ط8، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية.
- مازن الوعر 1988، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة.
- محمد محمد يونس علي 2004، مدخل إلى اللسانيات، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان.
- هادي نهر 2008، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، ط1، علم الكتب الحديث، الأردن.
- وليد محمد السراقبي 2019، الألسنية، مفهوما، مبادئها المعرفية ومدارسها، ط1، دار العتبة العباسية المقدسة، بيروت، لبنان.